

المتاجرون مع الله



نفوسهم تسخو بالعطاء وقضاء الحاجات دون قوانين تضطرهم إلى ذلك التجارة مع الله سبحانه وتعالى قد تكون بالنفس، وقد تكون بالمال، وهذا غاية ما يملكه الإنسان.. وفي هذا المقال نتحدث عن أدب التجارة مع الله بالمال، وكيف تكون؟ وما أوصاف المتاجرين الصادقين مع الله بأموالهم؟ لاسيما مع تفشي حب المال، وعشق جمعه، والعن إنجافه في سبيل الله.. في هذا الزمان.

الذين يتاجرون مع الله سبحانه وتعالى بأموالهم هم أناس فقهوا قوله، ووثقوا بوعده، تخلصوا من جاذبيات الحياة، فعلوا بنفوسهم سخية قد استعلت على الأرقام الحسابية، لأنّهم آمنوا بأنّ الحقّ سبحانه وتعالى الباسط القابض يرزق من يشاء بغير حساب، أي أنّه كما ينتفي الحساب في مجيء الرزق، فكذلك هؤلاء تسخو نفوسهم بغير حساب.

قد يظن البعض أنّ ذلك مثالية لا يتحملها الواقع الذي نعيشه، وهذا الطن إنما يأتي لقلة في الثقة بما عند الله، أو لغلبة طبع شح النفس وبخلها، أو لغلبة الاهتمام بالدنيا ومخافة الفقر، أو هو على كل الأحوال بعد عن كل معانٍ إلهيٍ التي يحبها الله الذي يتقبل من المحسنين.

إنّ الثقة بما عند الله، والطموح إليه، والرغبة فيه، والحرص عليه كلّ ذلك يجعل المتاجرين مع الله يقبلون على تجارةٍ عفو نفوسهم، وتلبيةً لما وقر في قلوبهم، وكلّ أمرهم الله يشترون الجنة ببذلهم، لذا فليس بينهم فرقٌ بين رخيصٍ وغالٍ.

انظر إلى صهيب (رض) وقد اشتري نفسه ودينه ومقامه مع الرسول (ص) بكلّ ماله، بل بكلّ ما يملك من مال ومتاع يفتدي بهما نفسه من براثن الوثنية والشرك، ويستنقذ إيمانه من مواطن الكفر م قبلًا على الهجرة الله رسوله، إذ يرخص في سبيلها كلّ ثمين.

وهنا تتصاءل الأرقام فلا تكون لها قيمة، وتتوقف الحسابات فلا يكون لها معنى أو دلالة، لأنّ ما عند الله خير وأبقى، فإذا تغلغل هذا المعنى في النفس فإنه لا حاجة لضرب الأخماس في الأسداس لأنّ الجزاء إنما يكون جزاءً غير محدود.

وللمتاجرين مع الله بأموالهم خصال كريمة رفيعة، فهم يدركون أن الجنة ثمنها، وأنها سلعة غالبة لا يُقبل عليها إلا مشترٍ قادر، وقيل ذلك مشترٌ راغب، تملأ الرغبة نفسه وتشع بين جنباته، وهو: بضاعةٌ نصب عينيه شراؤها بكلٍّ غال، ولا تقاد تفارق فكره ونفسه، وهو يتحين كلٍّ فرصة فلا يدعها تفوته.

ومشتري الجنة - الذي يتاجر مع الله لأجلها - لا تعنيه عوالم الأرقام وجدوى اقتصادات أمواله، إنما يعنيه إخلاص الوجه للسبحان، والمصدق مع الله ليصدقه الله.

رأيت إلى ذلك الأعرابي الذي سرى الإيمان من نفسه مسرى ثبات ويقين، إذ جاء في السيرة أنَّ الرسول (ص) أرسل إليه نصيبه في غزوة، فنهم (رض) إلى رسول الله مستنكراً ثمن جهاده وبذله، لا لقلته أو كثرته، ذلك أنَّ الأرقام في حسابات هؤلاء الحريميين على الجنة منتفية تماماً، ولكنه فهو من المستعلي بما يمانه على كلِّ ما يظن أزمه قد لا يبلغه غايتها في الجنة فيقول قوله: "يا رسول الله، وما على هذا اتبعتك - أي ما وصله من نصيبه في الغزوة - ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا - وأشار إلى حلقة فأموت فأدخل الجنة".

ويصدق الرجل فيصدقه الله ويشهد رسول الله على أزمه شهيد.. فيما لها من جنة، ويما له من حسن مآبه.. ويما لقزامة أولئك الذين يمسكون فلا يكون لهم إلا دعوة بغلس الليل: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.. ما أيقنوا أزمه ما نقص مال من صدقة، وما غاض مال من قرض مع الله، وما قل مال من فضل يسع المسلمين، تُشتري به جنة عرضها كعرض السماوات والأرض.

سخاء دون انتظار مقابل:

والمتاجرون مع الله تسخونفسهم دون حاجة إلى معرفة بما وراء الحاجات، فحسب الواحد منهم أنَّ ينمى إلى سمعه حاجة أو ضائقة بأخيه، وهو يلتمس مواضع الحاجات ويتفقدها لثلا تفقدها مفرجاً ومعيناً وساعياً فيها، وهو غير متعدد فيما يعطي بل تطمئن نفسه إلى ما أعطاها، ولعله سعى إلى التجارة مع الله سعياً، ليكون له في الجنة موضع قدم.

انظر إلى ذلك الصاحبي الجليل - كما قصت السيرة - يرنو بسمعه إلى أناس يتحدثون عن نخلة في الجنة يعد بها رسول الله (ص) صاحب النخلة المائلة على بيت جاره، فلا ينتفع بثمرها وإنما يأكله صغار جاره المسلم، ولا حيلة في فض التنازع إلا أن يعفو صاحب النخلة، فيما بي فيغريه (ص) بتركها وله في الجنة مثلها فيما بي ثانية، ربما كانت هي متاعه في الدنيا الذي يملكه فتتردد في نفسه أن تسخونها، هنا يسعى الحريميون على التجارة مع الله يرجون الآخرة بما لديهم من متاع الدنيا فهم أبعد نظراً وأحسن نفسها، وأطول يداً، وهم خبروا الآخرين، وسبروا غور نفوسهم، فلتكن المقاومة على متاع دنيوي بمتابع دنيوي سخي يفوز بعدها بتلك النخلة التي في الجنة.. نخلة في الجنة ربما رأها قصار النظر شيئاً يسيراً ولكن من يضمن ولو ورقة من شجرة في الجنة؟.

ولأنَّ المتاجرين مع الله هم وحدهم الذين يدركون قيمة الجنة، وثمنها، فكلٌّ شيء من متاع الدنيا في سبيلها زهيد رخيص، وهكذا يقبل الصاحبي الجليل على صاحب النخلة فيشتريها منه بستان كبير ويقدمها لرسول الله (ص) طاماً وراجياً أن يفوز بنخلة الجنة، فيعده (ص) بها، فتقر نفسه، ويجد في ذلك أريح وأكسس تجارة تاجرها في حياته.. فهل يعي الممسكون؟.

إخلاص الله وحده:

والتجارة مع الله فن لا يجيده إلا كرماء النفس الذين جبلوا على حب العطاء بلا تفكير إلا أن يصدقوا الله ويخلصوا العطية فلا تكون رباء ولا سمعة، والمال عندهم لا قيمة له، فقد تنزهت نفوسهم عن التعلق به، وهو ليسوا في كلِّ الأحوال أغنياء أثرياء، بل قد يكون الرجل منهم فقيراً لا يملك إلا قوت يومه فيجود به سخية نفسه.

انظر إلى عليٌّ بن أبي طالب (ع) يجود بما لديه من طعام على حبه ورغبته فيه، وحاجته إليه، فيطعمه مسكيناً ويسيراً، فلا يكون الجزاء إلا أن يقيمه الله ومن مثله شر يوم عبوس قمطير، وتكون الجنة فلا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً.

سبحان الله.. يا للأسخياء البررة من حسن الجزاء.

وانظروا إلى رجلين من صاحبة رسول الله (ص) اختلفا فيما لديهما، وتقاسما السخاء والتنزه عن المال عندما يكون سبب نقيصة أو دخن يردي النفس، ويهلكها.

يدخل الصاحب الفقير، ورسول الله يجلس إلى غني - كما جاء في الروايات - يتخذ الفقير مجلسه حيث الغني، فما كان من الأخير إلا أن لم يلمس أطراف ثوبه، فينظر الرسول (ص) قائلاً: "هل خفت أن يصيبيه بعض غناك، أم يصيبيك بعض فقره؟!"، فيبتسم الغني قائلاً في غير تردد: "إن كان ذاك يا رسول الله فوا الله إن له نصف مالي"، فيدير رسول الله (ص) وجهه إلى الفقير قائلاً: "هل قبلت؟" فيرد الفقير أيضاً وبدون تردد: "لا يا رسول الله!" فيستفسر (ص) عن سبب رفضه مثل هذا العرض المغرى من الغني، فيكون ردّ الفقير ملجماً لكل أولئك الذين يتصورون أن العطاء إنما يكون عن غنى وسعة، وزيادة مال.. يقول الصاحب الفقير (رض): "أخشى إن قبلت أن يصيبني ما أصابه عندما جلستُ إلى جواره".

ما أروع تلك النفوس الزكية وما أسرعها إلى خلع لباس الدنيا حتى لا يهلكها.. فلا نامت أعين الأشقاء.

تجاب مع البر:

والذين يتاجرون مع الله ليسوا في حاجة إلى أسباب تدفعهم لهذه التجارة إلا الصدق مع الله والإخلاص له، والفوز بما عنده، وهو لهم فطر تتحاول مع الخير حيثما يكون، وتستحبب لكل أنواع البر التي أرشدت إليه، فهي لا تلتزم ذريعة من فعل الساقين، أو قدوة الأولين وهي لا تنتظر أن تسخو بعد تأكيد من ثقة يوثق به، بل تميز الخبيث من الطيب، وتستشف الخير فيما يعرض عليها وتقبل عليه، وهي لا تنتظر القوانين التي تغيرها على البر حبراً، أو تضطرها إليه اضطراراً، ولكنها إلى الحق أسع، وإلى التحاول مع كل ما كان من البر أسبق.

انظر - أخي - إلى صاحب العمل وقد نسي عامله أو أجيره أجره الذي كان عليه أن يأخذه، بالطبع لم يسقط من ذاكرة صاحب العمل أجر عامله ولم يحفظه له عندما يلقاه يؤديه إليه ويغيب العامل ولم يحفظه له عندما يلقاه يؤديه إليه ويغيب العامل غيبة طويلة، يعود بعدها فماذا يكون المتوقع مع أصحاب الأعمال في عصر أثرياء الطفرة؟!.

توقع كل شر وأمثالهم طريقة سوف يحاول أن يتذكر ليعطي عامله وهو يحس بأنه متفضل عليه، فليس معه ما يثبت حقه من سنوات، ولكن مع المتاجر مع الله تختلف التوقعات، فلا يكون أداء الحق عن طيب نفس سوى أدنى درجات السخاء بالحق - إبراء اللذمة، وأمثلتها أن يتاجر صاحب العمل بمالي أجيره كما يتاجر لنفسه فيربح مال الأجير ويتضاعف، وتنزه نفس صاحب العمل عن أن تتوقف عن المتاجرة بمالي الأجير، وتحقيق أرباح متضاعفة تُحسس للأجير يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ليعود الأجير فيؤدي إليه ماله وكل ما حققه من أرباح لقاء استثمار صاحب العمل له.

ولا غرو أن يتعجب الأجير العامل فإنه أمام تصرف فريد لم ولن تشهد الدنيا مثله إلا مع مثل هذا الرجل الذي أعطى عامله عوائد أجره المتردك عنده، فلا تطمع فيه نفسه، ولا تجترئ منه شيئاً، بل تجود به كلّه لا لشيء إلا لوجه الله سبحانه وتعالى، مما رغبت في شيء سوى ما عنده، وما اضطرها أحد لمثل ذلك التصرف إلا الرغبة فيما عند الله، وتصدق النية فيصدقها الله، وينجو بها صاحبها من صخرة الغار يحرکها الحق سبحانه وتعالى جراء ما أخلص.

فأي روعة تلك التي تتسم بها مواقف المتاجر مع الله؟ يا لboss أصحاب الأعمال في زماننا.. أولئك الذين يتاجرون مع الدنيا ليربحوا.. وتنضمهم ثرواتهم من كد وعرق إخوانهم الذين يعملون بمحض نعمتهم أو متاجرهم.. فلا يوفونهم الحقوق إلا مبخوسة، لا تكاد تصمد أمام أعباء الحياة الكريمة.

ألم نقل إنَّ الأشخاص الأتقياء الذين يتاجرون مع الله وحده ليسوا في حاجة إلى قوانين تضطرهم إلى بذل الحقوق اضطراراً؟.. ألم نقل إنَّ المتجارين مع الله تنجو بنيفسهم، وتستجيب قلوبهم لكلِّ أنواع البر؟

رأيت - أخي - مثل صاحب العمل هذا يستثمر لعامله أجره، ويعطيه عائد سخية به نفسه؟، فما بال أصحاب الأعمال في زماننا يُكرهون كرهاً على دفع مكافأة، أو هبة لعمالهم يواجهون بها تكاليف الحياة بعد تركهم العمل لأي سبب من الأسباب ويرون ذلك هماً ثقيلاً لم يؤت به سلطان من شريعة أو عقيدة؟! وهل البر دائمًا بحاجة إلى ذريعة من قانون.. أو شريعة؟ ويل لهم ثم ويل لكلِّ الممسيين الذين يضربون الآخرين في الأسساً طمعاً في كسب وفير.. على حساب كلِّ معنى جليل.. ويل لهم من دعوة بغلس الليل لا يهتمون بها: "اللَّهُمَّ أَعْطِ مَمْسَاكًا تَلْفًا".

وقد يداه قال الشاعر:

ومن لم يسخ بما يسخوا إلاله به *** فإِنَّه أحمقٌ بالحرص ينتحر

إضاءة . . .

قرار بالسعادة

السعادة، وراحة البال، والطمأنينة، والسكينة، كلها أمور لا تُشتري ولا تُباع، بل تُمنح من مالك السماوات والأرض.

ولا يمنحها رب إلا لمن تجرد له وحده، وعمل له وحده، وكان همه الآخرة، وأخرج الدنيا من قلبه وجعلها بيده، ولم ينفق شيئاً من الوقت في غير طاعة الله، وأدرك أنَّ الدنيا زائلة، وأنَّ مكوثه فيها محدود، فسابق الزمن، ليملأ صاحفه قبل فوات الأوان، وكان في شغل شاغل لتنقية قلبه من الشوائب، وإزالة العوارض التي تمنعه من الانطلاق في مدارج السالكين.

يفرح أحد هؤلاء، ويمتلئ قلبه بالسعادة فيصبح: "لو يعلم الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف".

ومخطئ من يظن أنَّه يحصل على السعادة بالمال، أو العقار، أو الدواب، أو البناء، أو الأولاد، قال تعالى: (أَلَا بَذَكْرُ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28)، فلا سعادة إلا بالاتصال برب السماوات والأرض، ونحن أصحاب القرار، إما أن نطلب السعادة أو الشقاء، وإذا اخترنا السعادة فلا بد من أن نسلك أسبابها.